المشهد
العدد 339 – السنة الرابعة عشرة -الأحد 25 مايو 2025 م الموافق 27 ذو القعدة 1446 هـ

قالت العرب

"لا أحنُ إلى أي شيء
فلا أمس يمضي ولا الغد يأتي
ولا حاضري يتقدَم / لا شيء يحدث لي!
ليتني حجر"

محمود درويش (1941 – 2008)

حين خرجت الكنيسة من مصر ولم تخرج مصر منها

الشتات القبطى

فى صباح أحد بارد فى مدينة تورونتو الكندية، يعلو صوت التسبيحة القبطية فى كنيسة «القديس مرقس». المصلون يردّدون: «تين أويك»، بينما الأطفال يجلسون بصبر، بعضهم لا يفهم كلمة واحدة من اللغة القبطية أو العربية. أحد الخدام يهمس بلطف لصبى فى السابعة بالإنجليزية، يشرح له ما يقوله الكاهن. هذه اللحظة تختصر تحوّلًا هائلًا تمر به الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، منذ أن بدأت فى الخروج من مصر، قبل أكثر من نصف قرن.

الكنيسة التى وُلدت فى الإسكندرية، وأصبحت تُعرف بـ«كنيسة الشهداء»، تخوض اليوم تجربة وجود غير مسبوقة فى تاريخها. مئات الكنائس المنتشرة فى كندا، الولايات المتحدة، أستراليا، وأوروبا الغربية، تخدم ملايين الأقباط الذين غادروا مصر، حاملين معهم طقوسهم، وصلواتهم، وحنينهم.

كمال زاخر: الكنيسة فى المهجر تعانى من صراعات الهوية والمستقبل مرهون بتفهم تحولات الخارج

الهجرة تصنع كنيسة جديدة

بدأت الهجرة القبطية بوتيرة متسارعة، منذ السبعينات، مدفوعة بأسباب سياسية، واقتصادية، وأحيانًا أمنية. مع كل موجة، كانت الكنيسة تتبع أبناءها، ترسل الكهنة، وتبنى الكنائس. واليوم، بحسب تقديرات غير رسمية، هناك أكثر من ٦٠٠ كنيسة قبطية فى المهجر.

لكن بناء الكنائس لم يكن مجرد مدّ طوب وأسقف؛ بل كان إعادة زرع جذور دينية وثقافية، فى أرض مختلفةٍ تمامًا. فى المهجر، لم تعد الكنيسة فقط ملجأً روحيًا؛ بل صارت أيضًا مركزًا اجتماعيًا، تعليميًا، ونفسيًا.

الآباء يحملون مصر والأبناء يصنعون هوية جديدة

داخل هذه الكنائس، تعيش الأجيال على توازن دقيق. الجيل الأول من المهاجرين، يرى فى الكنيسة حضن الوطن، واللغة، والذكريات. أما الجيل الثانى والثالث، فله عينان على العالم الجديد، وهُوية متأرجحة بين «أنا مصري» و«أنا كندي» أو «أمريكي».

يقول «مينا»، شاب قبطى يعيش فى مونتريال: «بحب الكنيسة، لكن أوقات بحس إنها مش فاهماني. هم بيكلمونى بلغة، وأنا بفكر بلغة تانية». كثير من الشباب يشعرون أن العظات التقليدية لا تمس واقعهم، وأن الكنيسة تركز على الشكل والطقس أكثر من الجوهر.

النتيجة.. البعض يبتعد، والبعض ينتقل إلى كنائس أخرى أكثر انفتاحًا. لكن فى المقابل، هناك محاولات جادة من بعض الكهنة والخدام، لفهم هذا الجيل، بلغة جديدة، وتواصل أعمق.

وعلق المفكر القبطى ومؤسس التيار العلمانى داخل الكنيسة، كمال زاخر، "إن الفضل فى تأسيس الكنائس القبطية بالخارج يعود إلى البابا كيرلس السادس، والأنبا صموئيل، أسقف الخدمات العامة الذى استُشهد فى حادث المنصة عام ١٩٨١. وأوضح أن الحاجة هى التى دفعت الكنيسة آنذاك إلى التوسع خارج مصر، خاصة بعد موجات الهجرة الأولى إلى الغرب، سواء قبل ثورة يوليو أو بعدها، حيث كانت الرغبة الأساسية هى مد مظلة الرعاية الروحية لأبناء الكنيسة الذين غادروا مصر، لكن تمسّكوا بعلاقتهم الروحية والتقليدية بالكنيسة القبطية".

ومع مرور الوقت، وظهور أجيال جديدة من أبناء المهاجرين، استمر التوسع الكنسي، لكن ظهرت تحديات من نوع آخر - بحسب زاخر - أبرزها: الوصول إلى الجيلين الثالث والرابع. وقال إن أبناء هذه الأجيال يعيشون فى بيئة مختلفة، وثقافتهم وانتماؤهم باتا أقرب إلى الدول التى وُلدوا ونشأوا فيها. وتابع: "الجيل الثالث والرابع يحملان ثقافة البلد المقيم فيه، وانتماؤهما له يكون طبيعيًا، ما يفرض على الكنيسة مسؤوليات جديدة لم تكن مطروحة فى الماضي".

وشدّد زاخر على ضرورة أن تغيّر الكنيسة من أدواتها فى التعامل مع هؤلاء، قائلًا: "يجب أن تتغير معايير اختيار الأساقفة والكهنة فى الخارج، بحيث تراعى الثقافة المحلية، واللغة، والقدرة على التفاعل مع التحديات الفكرية والاجتماعية الجديدة، التى تجتاح المجتمعات الغربية". وأضاف: "ينبغى كذلك إعداد خدام من أبناء هذه الأجيال، ذوى الأصول المصرية، وهو ما أعتقد أن الكنيسة بدأت بالفعل فى تنفيذه، من خلال افتتاح أديرة مصرية بالخارج؛ ما يتيح انخراط المقيمين فى الحياة الرهبانية، والخدمة الكنسية".

وتطرق زاخر إلى قضية مزدوجى الجنسية من رجال الإكليروس، وقال إنها ستطرح إشكالية مستقبلية، حيث سيكون هناك كهنة وأساقفة مصريون يحملون جنسيات أخرى، وبالتالى يصبح من حقهم، من الناحية النظرية، أن يشاركوا فى كل المسؤوليات الكنسية؛ بما فيها: الترشح للبطريركية. وتساءل: "هل نتخيل فى ظل الثقافة السائدة فى مصر، وفى الشرق عمومًا، أن يُختار بطريرك من الأقباط الفرنسيين أو الأمريكيين؟ هذا ما حدث بالفعل فى الكنيسة الكاثوليكية، لكنه لا يزال غير مقبول فى سياقنا القبطى حتى الآن".

وحول تجديد الخطاب الكنسي، قال زاخر: "إن الكنائس فى الخارج لا تصلى باللغة العربية، وهذا أمر طبيعي، ولا يجب أن يُنظر إليه باعتباره انحرافًا". وأضاف: "الكنيسة بحاجة إلى تغيير فى الشكل واللغة والطرح؛ لتظل قريبة من الشباب. العلاقة بين الكهنة والعلمانيين فى الغرب مختلفة كليًا عنها فى مصر، حيث نحن محكومون بتراث طويل يفرض أنماطا تقليدية، لم تعد صالحة فى السياق الجديد".

وأشار إلى أن الخلاف فى وجهات النظر بين الكنيسة الأم فى مصر، وأساقفة المهجر، وارد بطبيعته، لكنه لا يزال محدودًا؛ لأن الغالبية العظمى من الأساقفة فى الخارج هم من أصل مصري، باستثناء اثنين تقريبًا فى فرنسا من أصول فرنسية. وقال: "حتى الآن، المشاكل التى تحدث فى الداخل تتكرر بشكل شبه متطابق فى الخارج، لكن الأمر سيتغير مع تطور الثقافة والوعي؛ لأنه حتى داخل مصر نفسها، الأجيال المختلفة باتت تعيش فجوات ثقافية وفكرية متسعة. وإذا لم نتطور، سنحكم على أنفسنا بالفناء".

وعن مسألة استقلال الكنائس فى الخارج، قال زاخر إن هذا الاستقلال نسبي، موضحًا أن الكنائس هناك تملك مساحة من الحركة فى علاقاتها مع المجتمع المحلي، لكنها لا تملك حرية التغيير فى العقيدة، أو الطقوس، أو النظام الكنسي؛ لأن هذه الأمور "محكومة" ولا تحتمل الاجتهاد.

وفى ما يخص القضايا الاجتماعية المعقدة التى تواجه الكنيسة فى الخارج، مثل: المثلية الجنسية، والهجرة غير الشرعية، أوضح زاخر أن الكنيسة تتعامل معها بتوازن دقيق، قائلًا: "فى الأمور السياسية، الكنيسة فى الخارج تعمل لتحقيق مصلحتها ومصلحة أبنائها، أما فى القضايا الأخلاقية، فهى تخضع بالكامل للمنظومة الإيمانية الأرثوذكسية، التى لا تتغير".

وأكد زاخر أن التأثير بين الكنيسة الأم والكنيسة فى المهجر، ليس من طرف واحد؛ بل هو تبادل حيوى ومؤثر، وقال: "مصر نفسها كبلد تأثرت فى مراحل كثيرة من تاريخها، بالاحتكاك مع الغرب، وفى كل مرة يحدث فيها هذا الاشتباك الثقافي، تظهر موجات من التنوير والتطوير داخل الكنيسة المصرية".

أما عن انفتاح الكنيسة على تغيير نظم التعليم الكنسى أو الطقوس، فرفض زاخر وصفها بالمنغلقة أو المنفتحة، مشيرًا إلى أن الأمر معقد، ويعتمد على طبيعة الأجيال الجديدة، وسرعة التحولات العالمية، وسهولة الوصول إلى المعلومات. وقال: "نحن أمام عالم يتحرك بسرعة، والمعلومة متاحة للجميع، وهذا يفرض على الكنيسة أن تكون أكثر وعيًا واستعدادًا للتغيير".

وفيما يتعلق بالصدامات التى قد تحدث بين الإيمان والمجتمع المحيط، أكد زاخر أن "المؤمن يظل مؤمنًا فى أى مكانٍ، لكن لا شك أن هناك حالات صدام تنشأ، وتُعالَج داخل الكنيسة بالحوار، والاجتماعات، والنقاش المفتوح، لا بالرفض القاطع".

واختتم زاخر حديثه بالتأكيد على أن الخوف من التغيير لا يزال قائمًا داخل الكنيسة، لكنه فى الغالب خوف ناتج عن الفجوة بين الأجيال، قائلًا: "الأجيال القديمة ترى فى أى تغيير تهديدًا ورفضًا للموروث، أما الأجيال الجديدة فتدخل فى صراع بين القديم والحديث، لكنها فى النهاية تتقبل الجديد، بشرط أن يأتى فى إطار الإيمان والتقليد الأرثوذكسي".

هل تتغير الكنيسة؟ أم تتغرب؟

الكنيسة فى المهجر أمام مفترق طرق: إما أن تتمسك بشكلها التقليدى وتخسر الأجيال الجديدة، أو أن تراجع نفسها، وتعيد تقديم إيمانها بشكل يناسب مناخًا جديدًا.

بعض الكنائس بدأت تقدم خدمات غير تقليدية؛ جلسات دعم نفسي، مشورات أسرية، استخدام مكثف للسوشيال ميديا، وحتى عظات بالإنجليزية بالكامل. فى المقابل، هناك كنائس أخرى لا تزال ترفض أي تغيير، وترى فى ذلك تهديدًا لـ"الإيمان المستقيم".

الواقع أن التحوّل حاصل، سواء اعترفت به الكنيسة أم لا. الأقباط فى المهجر يعيشون تجربة دينية واجتماعية مختلفة، تُعيد تشكيل علاقتهم بالكنيسة، وربما بمفهوم الإيمان ذاته.

هل يعود التأثير إلى الداخل؟

سؤال مفتوح بدأ يتردد: هل يمكن لكنيسة المهجر أن تؤثر فى كنيسة الوطن؟ هل تنتقل موجات التجديد والتحديث من الخارج إلى الداخل؟

فى بعض الأحيان، يحدث العكس؛ يتم انتقاد بعض ممارسات كنائس المهجر داخل مصر، وتُتهم بأنها تُفرّط فى التقاليد. لكن فى الوقت نفسه، هناك إعجاب بقدرة هذه الكنائس على التنظيم، والإبداع فى التواصل، ورعاية الشباب.

الكنيسة القبطية: بين الجغرافيا والروحانية

الكنيسة القبطية خرجت من مصر، لكنها لم تخرج من المصريين. هى تحاول أن تحتفظ بروحها، وهى تتنقل فى جغرافيا وثقافات جديدة. ربما لا تزال تبحث عن توازن بين القداسة والواقعية، بين الوطن والمهجر، بين الماضى والمستقبل.

وتكتب الكنيسة فصلًا جديدًا من تاريخها، لا يقل أهمية عن فصول الشهداء والآباء الأولين.

تقرير: مادونا شوقي